الخطابة

(الخطاب توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، ثم نقل إلى الكلام الموجه نحو الغير للإفهام، وقد يُعبر عنه بما يقع به التخاطب. قال في الأحكام: الخطاب: اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام مَنْ هو متهيّء لفهمه)[1].

(والخطابة: التأثير بالبيان، وعن المنطقيّين والحكماء هو القياسُ المؤلّفُ مِنَ المظنونات، أو منها ومن المقبولات، ويسمى قياسا خطابيا أيضا... وصاحب هذا القياس يسمى خطيبا، والغرض ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم)[2].

خَطَبَ قَسُّ بن ساعدة الإيادي[3] بسوق عكاظ، فقال:

(أيّها النّاسُ، اسمعوا وعوا[4]، مَن عاش مات، ومن مات فات[5]، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ[6]. ليلٌ داج[7]، ونهارٌ ساج[8]، وسماءٌ ذاتُ أبراج[9]، ونجومٌ تزهر[10]، وبحارٌ تزخر[11]، وجبالٌ

---

[1] حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 491.

[2] حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 491.

[3] هو أُسقف نجران في اليمن، من قبيلة إياد، وقيل هو كاهن من الكهنة، آمن بالله وأيقن بالبعث، ونبذ عبادة الأصنام، كان يتردد على سوق عكاظ، يلقي خطبًا واعظة، مذكرا بالموت والفناء، يدعو الناس إلى عبادة الله ونبذ الأصنام، ويرغب في فعل الخير والزهد في الدنيا، يعتمد في خطبه على السجع القصير، وضرْب الأمثال، وإثارة العواطف بالتهويل والتذكير بمصير الموتى من الأجيال السابقة، توفي سنة 600م تقريبا، قبيل ظهور الإسلام. وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: "رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت".

[4] عوا: افهموا.

[5] فات: مضى.

[6] آت: قادم.

[7] داج: مظلم.

[8] ساج: يذهب ويجيء، دائم .

[9] ذات أبراج: حزام دائري توهمه القدماء في السماء وقسموه إلى اثني عشر برجا (الثور، الأسد، السرطان، الجوزاء، العذراء، الحمل، العقرب، القوس، الميزان، الحوت، الدلو، الجدي).

[10] تزهر: تتلألأ وتشرق.

[11] تزخر: تمتلئ وتفيض.

مرساة[12]، وأرضٌ مدحاة[13]، وأنهارٌ مجراة[14]. إنّ في السّماء لخبرًا، وإنّ في الأرض لعبرًا[15]. ما بالُ[16] النّاس يذهبون[17] ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ يُقسم قسٌّ بالله قسما لا لإثمَ فيه: إنّ لله دينا هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، وإنّكم لتأتون من الأمر منكرا).

ويُروى أنّ قيسًا أنشأ بعد ذلك يقول:

فـــــي الـــــذّاهبين الأوّليـــــــ *** ـــــن مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر[18]

لمّـــــا رأيـــــتُ مـــــواردًا[19] *** للمـــوتِ، لـــيس لهـــا مصـــادر[20]

ورأيـــــتُ قـــــومي نحوهـــــا *** تمضـــــي الأكـــــابرُ والأصـــــاغرْ

لا يرجـــــــع الماضـــــــي ولا *** يبقـــى مـــن البـــاقين غـــابر[21]

أيقنـــــتُ أنّـــــي لا محـــــا *** لـــة حيـــثُ صـــار القـــوم صـــائرْ

(يتصل موضوع الخطبة بالتأمل في الوجود والحياة والمجتمع، ويوجّه قس بن ساعدة خطابه إلى الناس كافة، ويبدأ خطابه بقوله: اسمعوا وعوا، وهذا يتفق موضوعيا مع تأثير الخطاب والنصح، حيث إن تأثيره يبدأ في الوعي، وقد يمتدّ بعد ذلك فيؤثر في السلوك، وحيث إن ما قدّمه قسّ يتصل بالوعي، فإن ربط السمع بالوعي يمثل مبدأ موضوعيا للخطاب)[22].

(والجمل التي تتكون منها الخطبة قصيرة وحاسمة، وهي بمثابة مشاهد عقلية وبصرية لشاعر حكيم يرى أن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. وهي حقائق ومسلّمات لا ينكرها أحد، لكن

---

[12] مُرساة: ثابتة.

[13] مُدحاة: مبسوطة.

[14] مجراة: جارية.

[15] عبرا: مواعظ.

[16] بال: حال وشأن.

[17] يذهبون: يموتون ويرحلون.

[18] بصائر: جمع بصيرة، وهي المعرفة والاعتبار.

[19] موارد: جمع مَوْرِد، وهو المجيء.

[20] مصادر: جمع مصدر، وهو الرجوع.

[21] غابر: باق.

[22] حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 495.

المرء حين يسمعها في سياق تأملي كالذي قدمه قس بن ساعدة تُبْدِهُهُ تلك المسلّمات وتدهشه، وكأنه كان غافلا عنها)[23].

سبق لنا استعراض رأي شوقي ضيف في مكانة الخطابة في العصر الجاهلي، بناء على رأيي أبي عمرو بن العلاء والجاحظ، ولكن الباحثين غازي طليمات وعرفان الأشقر يريان أن شوقي ضيف قد بالغ في تفسير الرأيين، وأن المغزى منهما: (خلاصته أن الشعر كان أشيع من الخطابة وأنجع، وأن إسفاف فريق من الشعراء أركب الخطابة ظهر الشعر، فلو بقي الشعر في عليائه ما طاوله فن آخر، وإذا أغضيتَ عن القولين – وهما في الحقيقة قول واحد – ونظرتَ في مسلك العرب وجدت الشعراء أبرز من الخطباء، وأبعد تأثيرا في الحياة العامة؛ فهم رؤساء الوفود عند الملوك، وبهم يناط الدفاع عن المصالح، والشفاعة للأسرى[24]، وبألسنتهم تنعقد المنافرات، وبكلام الموزون تجري الألسنة. وربما شاركهم الخطباء، فاجتمع الشاعر والخطيب على الفكرة الواحدة، فجرى لسان الخطيب بمثل ما جرى لسان الشاعر، غير أن كلام الخطيب يذهب أكثره، وكلام الشاعر يُحفظ كلّه. وأنت تعرف من خبر المنافرة بين الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم ما يُعلي الشعر على الخطابة، فقصيدة عمرو بن كلثوم "ألهت بني تغلب عن كلّ مفخرة"، وقصيدة الحارث بن حلزة وصلت إلى موضع الانعطاف في عقل الحَكَمِ فلوت عنقه من السّير في ركاب تغلب إلى السير في ركاب بكر)[25].

(وردنا الأخير أنّ الفصل بين الخطابة والشعر في العصر الجاهلي مطلب عسير، فكثيرا ما ينطوي الخطيب في إهاب[26] شاعر، وكثيرا ما يتحول الخطيب إذا ما اشتعل حماسة وتفجّر غضبا إلى شاعر أو راجز. ومن الشعراء الذين خطبوا وأجادوا عامر بن الطفيل، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والحارث بن ظالم المرّي.

ومن أشهر الخطباء الذين برعوا في الخطابة، ولم يبرعوا في الشعر عامر بن الظّرب العدواني، وقسّ بن ساعدة الإيادي، والمأمون الحارثي، وعتبة بن ربيعة خطيب قريش يوم بدر، وابن عمار الطائي خطيب

---

[23] حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 495.

[24] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 541.

[25] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 542.

[26] إهاب: جِلْد.

مذحج، وهانئ بن قبيصة خطيب شيبان في يوم ذي قار، وقبيصة بن نعيم، وهاشم بن عبد مناف، وقيس بن خارجة)[27].

(أنواع الخطب: شهد العصر الجاهلي أنواعا من الخطب، تختلف باختلاف الدواعي التي تستوجبها، وأشهر الأنواع: خطب المنافرة، وخطب الوعظ، والخطب الحماسية الداعية إلى الحرب، وخطب الزواج، وخطب إصلاح ذات البين، والخطب التي تقال في التعزية، والتي تقال في التهنئة، ولكلّ رسومٌ وسمات، وأعلامٌ عُرفوا بها)[28].

(1 ـ خطب المنافرة: المنافرة والمفاخرة بمعنى واحد، وهي المباهاة في الجمع المحتشد بفضائل الأصل ومكارم النسب، ومحامد الخلق، وعلوّ المنزلة، وجليل الفعال... ومن هذه المنافرات منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل حين تنازعا الرّياسة، فمضى كلّ واحد منهما يذكر مناقبه، وهي شبيهة بمعركة انتخابية يتنافس فيها زعيمان من زعماء السياسة للفوز بتأييد الجماهير. قال علقمة لعامر: "أنا خير منك أثرا، وأحدُّ منك بصرا، وأعزّ منك نفرا، وأشرف منك ذكرا"، فردّ عليه عامر: "إني أسمى منك سمّة[29]، وأطول منك قمّة، وأحسن منك لمّة[30]، وأجعد منك جُمّة[31]، وأسرع منك رحمة، وأبعد منك همّة"[32].

(فإنْ نظرت في الفضائل التي يعتزّ بها الطرفان وجدت فيها خلاصة المثل العليا، وزبدة الفضائل والمكارم. ولما كان كبشا النّطاح ينتطحان على مرأى من الناس ومسمع، فهما مضطران إلى التزام الصدق، ومجانبة الادعاء، فكأنهما يتقاضيان أمام محكمة يترأسها قاض، ويشهدها جمهور من أنصار الفريقين. وربما أعقبت المنافرة بين الخصمين خطبة يلخص فيها الحاكم رأيه، ولا يقبل منه الحكم ما لم يشفع بالأدلّة التي ترجّح كفّة على كفّة، كما صنع نفيل بن عبد العزّى حين تنافر إليه عبد المطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ، وحرب بني أمية)[33].

---

[27] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 542، 543.

[28] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 543.

[29] السمّة: القرابة.

[30] اللمّة: الشَّعر المجاور شحمة الأذن.

[31] الجمّة: مجتمع شعر الرأس.

[32] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 543.

[33] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 543.

(خاطب نفيل حربا فقال: "يا أبا عمرو، أتنافر رجلا هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأجزل صفدا[34]، وأطول منك مذودا[35]؟، وإني لأقول هذا، وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جدّ المريرة[36]، جليل العشيرة. ولكنك نافرتَ منفّرا". فحربٌ – على فضائله الكثيرة – لا يصلح لمطاولة عبد المطلب ومقاواته، ولكن جدّه العاثر صغّره أمام الكبير، وحقّره بين يديْ الجليل...)[37].

(2 ـ خطب الوعظ: إذا فرغ الأعرابيّ المتبصّر من الرّعي في السّلم، ومن الغزو في الحرب، أرسل نظره في السّماء، وأعمل عقله في الحياة، وساءه أنْ يغفل قومه عن حقائق يهديه إليها إدراكُه، فطفق يبصّرهم بها، ويعظهم وعظ المعتبر بالتجربة الحيّة... ومن أشهر الخطباء الوعّاظ المأمون الحارثي الذي خطب قومه، فقال: "أرعوني أسماعكم، وأصغوا إليّ قلوبكم، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد. طمع بالأهواء الأشرُّ[38]، وران على القلوب الكدر، وطخطخ[39] الجهل بالنّظر. إنّ فيما ترى لمعتبرا لمن اعتبر. أرض موضوعة، وسماء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري فتعزب.. يا أيتها العقول النافرة، والقلوب النّائرة أنّى تؤفكون، وعن أيّ سبيل تعمهون، وفي أيّ حيرة تهيمون، وإلى أيّ غاية توفضون[40]. لو كشفت الأغطية عن القلوب، وتجلّت الغشاوة عن العيون، لصرّح الشّكّ عن اليقين، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة")[41].

وربما كانت خطبة قسّ بن ساعدة الإيادي بسوق عكاظ أشهر من هذه الخطبة، ولا يميّزها منها إلاّ مزجها بأبيات من الحكمة تكمل ما في الخطبة من تأمّلات. أما الموضوع فيكاد يطابق الموضوع الذي طرقه المأمون الحارثي) [42].

---

[34] الصفد: العطاء.

[35] المذود: اللسان، وأراد هنا أفصح.

[36] المريرة: عزّة النفس.

[37] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 544.

[38] الأشر: الفرح والمرح.

[39] طخطخ: أظلم.

[40] توفضون: تسرعون.

[41] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 544.

[42] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 544.

(3 ـ خطب الحرب: في الحرب تغلب الحماسةُ الحكمةَ، ويطغى الغضب على الحِلم، ويتبارى الخطباء والشّعراء في إيراء النّار، هذا يقتدح، وذاك يحتطب، والنتيجة احتراق القبائل بما تصطلي)[43].

(وقد تخرج الخطبة من إطار الصراع بين القبائل إلى إطار الحميّة القوميّة، فيذكّر الخطيب بالقيم، ويزهّد في الحياة، ويدعو إلى النّزال. قال هانئ بن قبيصة الشّيباني يحرّض قومه يوم ذي قار: "يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور. إنّ الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصّبر من أسباب الظّفر. المنيّة ولا الدّنيّة. استقبال الموت خير من استدباره. الطّعن في ثغر النّحور أكرم منه في الأعجاز والظّهور. ي آل بكر، قاتلوا، فما للمنايا بدّ")[44].

(4 ـ خطب الزّواج أو الإِمْلاك: في هذا النّمط من الخطب مظهر من رقيّ العرب، وشكل من أشكال التّعبير عن تواصلهم الإنساني. وجوهرُه أنْ يُعلن الخطيب مناقب الخاطب ليظفر بالقبول من أهل المخطوبة. وربما نهض خطيب من قوم المخطوبة فتكلّم، فيكون الكلام ردّا لبقا يؤنس النّاس، ويترجم مكارم الأخلاق)[45].

(لكنّ هذا الضّرب من الخطب لا يخلو من إعنات للخطيب، وكدّ للخاطر. قال عمر بن الخطاب (ض): "ما يتصعّدني كلام كما تتصعّدني خطبة النّكاح"، ولعلّ السّبب في ذلك المأزق اللّجج الذي يوضع فيه الخطيب، فالأفكار لا تخلو من مجاملة ومصانعة، ومذاهب القول محدودة بالمدح الهادف إلى الظّفر بالقبول، ولذلك يتوخّى الخطيب الصّدق، وسًوق الفضائل. ومن أشهر الخطب المأثورة في هذا المجال خُطْبة أبي طالب في خِطْبة السّيّدة خديجة (ض) لمحمّد ﷺ. قال أبو طالب: "الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرّية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس. ثمّ إنّ محمد بن عبد الله ابن أخي، من لا يوازن به فتى من قريش إلاّ رجح عليه برّا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا، وإنْ كان في المال قلّ فإنّما المال ظلّ زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصّداق فعليّ")[46].

---

[43] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 544.

[44] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 545.

[45] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 545.

[46] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 545.

(أما الردّ فجوهره القبول وإطراء الخطيب للخاطب والمخطوبة، وربّما تضمّن بعض النّصح يزجيه الأب بين يديه، وغايته توجيه ابنته وتوديعها، وتحميل الخاطب تبعة حمايتها. قال عامر بن الظرب العدواني في الردّ على خاطب ابنته صعصعة بن معاوية: "يا صعصعة إنّك جئت تشتري مني كبدي، وأرحم ولدي عندي، منعتك أو بعتك. النكاح خير من الأيمة، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألاّ أجد مثلك، أفرّ من السّرّ إلى العلانيّة، أنصح ابنا وأودّع ضعيفا قويّا". ثم أقبل عامر بن الظرب على قومه بني عدوان، فقال: "يا معشر عدوان، أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم، ولكن مَنْ خُطّ له شيء جاءه. رُبّ زارع لنفسه حاصد سواه..")[47].

(5 ـ خطب إصلاح ذات البين: للبداوة سلوك وخلق تفرضهما على أبنائها، فهي تدفعهم إلى الحماسة، وترغّبهم في الفخر، وقد ينقلب تفاخر الأعراب إلى منافرة، والمنافرة إلى مشاجرة، وحينئذ يبرز العقل حكما فيصلا، يقمع مظاهر العنف، ويبين للمتنافرين أنّ الصلح أحمى، وينهض بالأمر أصحاب الحكمة الرزّان، فينصحون للفريقين بالموادعة، ويزجرونهما عن المهاترة، ويدعونهما إلى جمع الشّمل، ورتق الخرق قبل استفحال العداوة)[48].

(كان مرثد الخير بن ينكف قَيْلاً، وكان حدبا على عشيرته، محبّا لصلاحهم، وكان سبيع بن الحارث، وميثم بن مثوب بن ذي رعين تنازعا الشّرف حتى تشاحنا، وخيف أنْ يقع بين حيّيهما شرّ، فيتفانى جذماهما، فبعث إليهما مرثد، وقال: "إنّ التّخبّط وامتطاء الهجاج[49]، واستحقاب[50] اللّجاج، سيقفكما على شفا هوّة، في تورّدها بوار الأصيلة[51]، وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتّت الألفة.. فقد عرتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممّن عصى النّصيح، وخالف الرّشيد، وأصغى إلى التّقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيور أمورهم، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثّأْيِ[52]")[53].

---

[47] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 545، 546.

[48] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 546.

[49] الهجاج: ركوب الرأس.

[50] استحقاب: هذا مثل، وهو من الحقيبة، أو من الحقاب، وهو بريم تشدّ به المرأة وسطها.

[51] الأصيلة: الأصل.

[52] الثّأْي: الإفساد والجراح.

[53] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 546.

(6 ـ خطب التعزية والتهنئة: من آداب الجاهلية التي أقرها الإسلام التعزية بما يُحزن، والتهنئة بما يُفرح، ولما كانت حياة الناس قسمة بين بؤسى ونعمى، وترح وفرح، فقد كثر كلامهم في التعزية والتهنئة. كانوا إذا عزّوا حاولوا أن يهوّنوا من شأن الدنيا، وأنْ يزهّدوا في ترفها، لأنها إلى زوال، وحاولا أنْ ينفحوا الناس بالمواعظ، ويحثوهم على التزام الفضائل، لأنّ حسن الأحدوثة أبقى ما يبقى من البشر)[54].

(عزى أكثم بن صيفي عمرو بن هند ملك الحيرة حينما قضى أخوه فقال: "إنّ أهل هذه الدار سفر، لا يحلون عقد الرحال إلاّ في غيرها. وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك. واعلم أنّ الدنيا ثلاثة أيام: الأمس عظة وشاهد عدل، فجعك بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم غنيمة وصديق أتاك، ولم تأته، طالت عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته، وغد لا تدري مَن أهله، وسيأتيك إنْ وجدك. فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟، واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشرّ من الشّرّ فاعله")[55].

(وكانوا في التهنئة يذكرون فضل المُهنّأ، ويذكّرونه بفضل الله عليه، وكأنهم بذلك يكفّونه عن الغرور، ويزجرونه عن البطر والأشر. هنّأ عبد المطّلب بن هاشم سيف بن ذي يزن باسترداد ملكه من الحبشة، فقال: "إن الله تعالى أيها الملك أحلّك محلا رفيعا، صعبا منيعا، باذخا شامخا، وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعزّت جرثومته.. أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة")[56].

(سنن الخطباء: تواضع الخطباء على رسوم يلتزمونها، وأعراف يتبعونها في أثناء التحدّث إلى النّاس. ومما يميز الخطابة إلقاؤها في المحافل، والأندية التي يتقاطر إليها الناس. وهذه السنن المتبعة ترقى بفن الخطابة، وتخلع عليه ظلال الهيبة، وأبرزها أن الخطباء كانوا في المواسم يتسنّمون الرّواحل ليراهم القاصي والداني، ويلوثون على رؤوسهم العمائم، فتزيدهم وقارا، ويشيرون في أثناء النطق بالمخاصر، والعصيّ، والقسيّ، فتبلّغهم هذه الإشارات الموزونة مواطن التّأثير في نفوس القوم)[57].

---

[54] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 546.

[55] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 546، 547.

[56] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 547.

[57] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 547.

ومما يُمتدح في الخطيب أن يكون جهوريّ الصّوت، شديد العارضة، قويّ الحجّة، كثير الرّيق، حاضر البديهة، حسن الالتفات، قوي الشّخصيّة، قادرا على إقناع النّاس بما يرى أنّه الحقّ. وربّما لجأ الخطيب إلى اصطناع الجهارة في الصّوت، واصطناع السّعة في الشّدق، والتّلاعب بالصّوت تضخيما وتفخيما، وتوقيعا وتنغيما حتّى يسحر السّامعين بالصّوت قبل أنْ يقنعهم بالحجّة)[58].

(وأجاد بعض الخطباء في بعض الخطب إجادة خلّدت ما قالوا، فحفظ الرّواة خطبهم، وسمّاها بأسماء تميّزها من غيرها. قال الجاحظ: "ومن خطب العرب العجوز، وهي خطبة لآل رقية، ومنها العذراء، وهي خطبة قيس بن خارجة في حرب داحس والغبراء)[59].

(ومما أُخذ على الخطيب البهر والارتعاش، والعيّ والحصر، والتّلجلج، والخوف من لقاء الناس، ومسّ الذّقن والسّبال والشّوارب، وكأنّهم رأوا في ذلك شططا وإسرافا في الحركات المعبّرة، أو دليلا على إنطاق الجوارح بما يعجز اللّسان عن النّطق به)[60].

(خصائص الخطابة: يطيب لكثير من الباحثين أنْ يشكّك في كثير ممّل رُوي من خطب الجاهليّين، لبعد العهد بين روايتها وتدوينها، ونحن لا نرى في هذا البعد وفي غيره من الحجج مسوّغات كافية لإنكار هذه النّصوص كلّها أو بعضها، ونذكر خصائصها ذاهبين إلى أنّها إلى الصّحّة أقرب، وأهمّ هذه الخصائص[61]:

(1 ـ القِصَرُ: فإذا ما قست ما رُوي من خطب العصر الجاهلي بما رُوي من خطب العصرين الإسلامي والأموي أدركت هذه الظّاهرة، وهي عندنا حجّة لإثبات الصّحّة، لا دليل على الشّكّ فيها، لأنّ الحفظة نقلوا ما بقي في الذّهن ولم يتزيّدوا، ولو أرادوا الانتحال لأطالوا.

2 ـ غياب المنهج: لا تجد في خطب العصر الجاهلي منهجا واضح القسمات، وخطوات مرعيّة يلتزمها الخطيب. فمن الخطباء من كان يهجم على غرضه بلا تمهيد، ويختم كلامه بلا خاتمة تلخّص رأيه. ومنهم

[58] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 547.

[59] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 547.

[60] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 547، 548.

[61] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 548.

من يبدأ بالعبارة المألوفة (أمّا بعد)، ومنهم من يجري لسانه بالفكرة الأولى التي يقذفها الخاطر غير مفتتح بهذه العبارة، أو بعبارة أخرى يلتزمها الخطباء)[62].

(3 ـ الاستشهاد بالشعر: لمّا كان الشعر أهم الفنون الأدبية في العصر الجاهلي فإنّ الخطيب كان يتوكّأ على الشعر، ويناقل بينه وبين النّثر، فمرّة يجعل الشّعر حشوا في خطبته، ومرّة يجعله خاتمة لها.

4 ـ قصر الجملة: عُني الخطباء بإيقاع الكلام، وأتقنوا تقسيمه إلى جمل موزونة في أغلب الأحيان.

5 ـ الصّنعة: لا يخلو كلام الخطباء من سجع وازدواج وتوازن لأن هذه الظّواهر تعين الخطيب على التأثير في القلوب والأسماع.

6 ـ بساطة الأفكار: أفكار الخطباء مجموعة من معان مقطّعة، وأفكار واضحة، يعوزها الفكر العميق. وهذه الظّاهرة حجّة كافية لترجيح الصّحّة على الشّكّ في نسبة الخطب إلى أصحابها)[63].

[62] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 548.

[63] غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص: 548.